المحاضرة السابعة:

كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة ولا يقصدونه البتة . اللهم إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام واتفق من غير قصد . وظل الحال على هذا إلى العصر العباسي الذي زخر بتيارات أدبية أخرى انفرد كل منها بسر من أسرار البلاغة ولون من ألوان البيان . وهذه التيارات الأدبية هي التي مهدت لظهور المدارس الكتابية في هذا العصر . ففي بداية العصر كان الأسلوب السائد هو الترسل الطبيعي ، ثم ما لبثت الأساليب أن مالت إلى التنويع والتفريع والتحليل والتعليل والاستقصاء . فالمدارس إذن مدرستان :

1ــ مدرسة الترسل الطبيعي .
2ــ مدرسة التحليل والتفريع والاستطراد .

أولاً : مدرسة الترسل الطبيعي :

رائدها عبد الله بن المقفع زعيم الكتاب في عصره ، وأحد مخضرمي الدولتين . قال يعبر عن طريقته الفنية في الكتابة : (إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر) . وقال : (عليك بما سهُلَ من الألفاظ مع تجنب الألفاظ السَّفِلة) .

طابعها :

يقوم على الترسل الطبيعي ، وعماده الإيجاز والإرسال ، فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء في مجال الحكم والأمثال . وقد كان رائدها :

- يميل إلى إرسال الكلام دون تقيد بازدواج أو توازن .
- لا يخرج عن الأسلوب العام في القرن الأول ، لكن بلفظ سهل وأسلوب سلس متين الرابط خال من المبالغات .

- ولم يحفل بالسجع ولا بغيره من المحسنات لأن عنايته بتجويد المعنى كان أكثر من احتفاله بجمال الألفاظ ، حتى إن القلم كان يتوقف في يده فسئل عن ذلك فقال : (إن الكلام يزدحم في صدري فيقف قلمي لتخيره) .
- كان يصطفي من الألفاظ أدقها تصويراً وأصدقها تعبيراً ولا يهمه بعد ذلك إن جاءت قوية جزلة أم سهلة لينة ، مسجوعة أم مرسلة ، موجزة أم مطنبة ، وهذا سر بلاغته . وقد قال في البلاغة : (البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها) .

ابن المقفع :

هو ابن داذويه، كان أبوه فارسياً من قرية تسمى (جور) ، نزل البصرة وظل على المجوسية مانوياً إلى أن استعرب لاقترابه من مواليه التميميين ، وقد ولي على ديوان الخراج زمن الحجاج فخان الأمانة فضربه الحجاج ضرباً تقفعت منه يداه ، ومن ثم سمي المقفع ، ومات ولم يُسلم .

وعليه نشأ ابنه ، وجعل يتكسب بضاعة أبيه فاشتغل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية ، ثم كتب إلى عيسى بن علي والي الأهواز وأعلن إسلامه على يديه فتكنى بأبي محمد وسُمّيَ عبد الله ، وهناك من يرى أن إسلامه لم يكن صحيحاً ، فهو زنديق ويستدل على ذلك بزمزمته ليلة حضوره لإعلان إسلامه .

وقيل أن عبد الله بن علي عم المنصور ووالية على الشام أعلن الثورة عليه غير أن جيوش المنصور هزمته ففر إلى أخويه عيسى وسليمان ، فطلبه المنصور منهما فأبيا أن يسلماه إلا إذا كتب له أماناً ، فقبل المنصور ، وكتب ابن المقفع الكتاب وشدد فيه مما أغضب المنصور ، فأرسل إلى سفيان بن معاوية المهلبي عامله على البصرة ليقتله وذلك سنة 143هـ ، وقيل سنة 145هـ ، وقيل بأنه قتل بتهمة الزندقة ولكيده للإسلام.

أخلاقه :

أخلاقه خالفت ما قيل عنه من زندقته ، فقد كان ذا خلق نبيل وقوراً يترفع عن الدنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله ، وأهم ما يميزه سخاؤه والمروءة والشعور بالكرامة ومراعاة الصداقة ، وله أدب جم وذكاء مفرط .

أدبه وفنه :

كان يجمع بين الثقافات العربية الإسلامية والفارسية والهندية واليونانية . وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات . وكان لثقافته الفارسية أكبر أثر في أدبه ، حيث كان يفاخر بكل ما في خزانته الفارسية من وترجمها بكل ما فيها إلى العربية ليضاهي العرب بعلومهم ، قيل أنه كبقية الموالي يدخل من خلال كتاباته إلى العرب ليوهن إسلامهم ويظهر ضعف العرب . وهذا من تخطيطه كان زنديقاً يظهر خلاف ما يبطن .

مؤلفاته :

1ـ الأدب الصغير : في ثلاثين صفحة ، يتميز بالقصر ويتضمن طائفة من الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وعلاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان والأصدقاء وغيرهم .

2ـ الأدب الكبير : يمتد في مائة صفحة ، وهي رسالة أكثر طولاً من السابقة موزعة في موضوعين : أولهما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم ، والثاني الصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح .

3ـ رسالة الصحابة : وتتكلم عن الصداقة وواجباتها وأخلاقها وكيفية التخلص من العدو والتعامل مع الحساد ، ثم تتكلم عن صحبة الولاة والحكام وواجباتها وآدابها .

هي مدرسة الجاحظ ، حملت لواء البيان عبر القرون منـــذ أواخـــر القـــرن الثـــاني الهجري ، حتى أن المدارس التالية لها لم تستطع أن تطغى عليها أو أن تطوي صفحتها .

طابعها :

استمدت أسلوبها من رافدين :

1ــ طريقة عبد الحميد الكاتب القائمة على الإسهاب والازدواج .

2ــ طريقة سهل بن هارون القائمة على التحليل والتعليل والجدل والحوار .

جمع الجاحظ هاتين الطريقتين وزاد :

1ــ على الأولى : حسن التقسيم ، وجمال الإيقاع ، والتقصي وكثرة الاستطراد .

2ــ وعلى الثانية : جانب الفكاهة الساخرة وتوليد المعاني .

ثم أوغل في كل هذا بقوة حتى كان في إيقاعه أوقع ، وفي ازدواجه أمتـــع ، وفـــي تحليله أدق وأبرع . وكان لبقاً في حواره ، قوي اللدد في جداله ، مريراً في تهكمه ، يسيل رقة في طرائفه ونوادره . وبكل هذا طبعت هذه الطريقة التـــي عـــرف بهـــا الجـــاحظ ، فظهرت وذاعت وانتشرت ، وطغت على غيرها من الطرائق .

أما العبارة فكانت متينة السبك ، جزلة الألفاظ ، محكمة الربط ، وثيقـــة الحلقـــات ، وربما كان من العسير في بعض عبارات الجاحظ أن تنزع لفظاً من موضعه وتستبدل بـــه غيره أو تقدمه على ما أخره ؛ لأنه يرى لكل معنى لفظاً خاصاً لا ثاني له .

أعلامها :

إذا كان سهل بن هارون هو واضع حجر الأساس ، فإن الجاحظ هـــو الـــذي رفـــع القواعد وأعلى البناء . وهذا سهل بن هارون نفسه يعترف بمكانة الجـــاحظ فيقـــول : (إذا ثبت الجاحظ في الديوان أفل نجم الكتاب) .

وقد اقتدى بالجاحظ الكثيرون منهم : ابن قتيبة الدينوري ، والمبرد ، وقدامة بـــن جعفـــر ، والصولي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابو هلال العســـكري ، وأبـــو حيـــان التوحيـــدي ، والثعالبي.

الجاحظ :

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قيل أنه كناني ، واختلف في سنة ميلاده ، واتفقوا على أن وفاته كانت سنة 255هـ . نشأ في البصرة مسقط رأسه ، وكان يختلف إلى بعض الكتاتيب يتعلم القراءة والنحو والفقه والحساب . وحينما شب عن الطوق ذهب إلى المساجد التي كانت أشبه بالجامعات ، فأخذ يلتهم كل ما يسمعه ويقرؤه .

كان فقيراً من المال لم يتزوج ولم يرزق بأولاد . فراح يتزود بجم غفير من الثقافات ، فقد كان يعمل في النهار ببيع السمك والخبز ، وفي الليل يدفع نقوداً لصاحب دكان الكتب ليمضي الليل يقرأ حتى طلوع النهار . فأعطى بذلك مثلاً لحب العلم والحرص عليه . وهو في كل ما يقرأ يحفظ ويخزن في ذاكرته ، وكان مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية يونانيو وعربية ، إلا أنه اعتنق آراء المعتزلة وكون لنفسه مجموعة من الآراء ، وأصبحت له فرقة تسمى بالجاحظية .

صفاته الخلقية :

كان دميم الوجه جاحظ العينين ، ومن هنا جاءت تسميته . وفي أواخر حياته مرض بالفالج الذي كان امتداداً لشلل أقعده على الحركة ألم به مبكراً لكنه لم يقعده عن الكتابة ، وأصيب بالنقرس وقيل مات تحت الكتب .

مؤلفاته :

(الحيوان) قدمه لابن الزيات وهو مفلوج . (البيان والتبيين) ، وكتاب (الزرع والنخيل) ، وأشهر كتبه (البخلاء) : تكلم فيه عن مجموعة كبيرة من الأقاصيص الفكهة عن الأشحاء في عصره ، وضمّن هذا الكتاب كثيراً من الهزل والنوادر . وله رسالة (التربيع والتدوير) تمتلئ بالدعابة وبالسخرية تمتد إلى عشرات الصفحات . وله رسائل إخوانية تدل على ظرف أفكاره وبلاغته .

والحق أن الجاحظ الذي يعد أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي هو ثمرة ناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة التي نهض بها المعتزلة سواء من حيث وضـــوح المعنـــى والمنطق ، وقوة الاستدلال ، والقدرة على توليد المعاني .

أسلوبه المميز : اسلوب الجاحظ

1ــ أسلوب الاستطراد بأن يكتب في موضوع وسرعان ما ينتقل منه إلى موضـــوع آخـــر غيره وهكذا .

2ــ ومن صفاته أنه لا يُعرف هزله من جده في مؤلفاته .

3ــ كما يتميز بسريان الازدواج في بعض كتاباته .

4ــ أما ألفاظه فهي ملائمة لمعانيها وموضوعاتها .

5ــ وهو الكاتب الوحيد الذي صور مجتمعه بصورة حقيقية وأظهر كل ما يدور فيـــه ، إذ كان أدبه أدباً واقعياً يصور عادات وتقاليد المجتمع وأخلاقه ، وما يتصل برجاله ونسائه .

6ــ قيل أنه نظم في الشعر لكن نظمه لم يصل ولا يأتي عند كتابته النثرية شيئاً .

7ــ ولما كان من أئمة المعتزلة فمن الطبيعي أن يعتمد في أسلوبه على التحليـــل والتعليـــل وتوليد المعاني .